



## المثقف الوطني في جوف الآلة

### جدلية الثبات والاهتزاز \*

د. سماح ادريس

يؤمن بأن الولايات المتحدة تهدف من وراء حملتها العسكرية على العراق إلى الاستمرار في السيطرة على النفط (ولاسيما بعد استفحال التحدي الاقتصادي الياباني والألماني عقب انتهاء الحرب الباردة)، وإلى

العراق للكويت، «فأرسلت وفداً رفيع المستوى إلى السعودية، ونشطت عالمياً وفي الأمم المتحدة لفرض حصار اقتصادي على العراق، في الوقت الذي أخذت تُعدُّ فيه لضربة عسكرية ضده» (ص ١٨). وهو

تحلّ في مثل هذه الأيام ذكرى مرور ستين على اندلاع «عاصفة الصحراء» أو «أم المعارك». وفي هذه الذكرى الأليمة رأيت أن أشرك قراء الآداب في متابعة أحداث وتحليلات ومواقف بارزة في كتاب جديد قيّم صدر للدكتور الصديق حليم بركات، أستاذ علم الاجتماع والرواية في جامعة جورجيتاون في واشنطن.



مركز دراسات الوحدة العربية

## حرب الخليج خطوط في الرمل والزمن

يوميات من جوف الآلة

الدكتور حليم بركات

يوميات من جوف الآلة، كما يدلّ العنوان، متابعة شبه يوميّة للأحداث المتسارعة التي أدّت إلى الحرب التي قادتها الولايات المتحدة ضدّ العراق عقب اجتياح الأخير للكويت، ومتابعة لأحداث الحرب نفسها، ولنتائجها وللحقائق التي تمخّضت عنها بعد عامٍ وأكثر على انتهائها. ويقوم بهذه المتابعة حليم بركات من مسكنه في واشنطن التي تدير آلة الحرب «الحضارية» ضد العرب.

في أسباب قيام الأزمة الأمريكية - العراقية، يوجّه بركات نقده الأشرس للولايات المتحدة الأمريكية. فهي في رأيه لم تكن تريد حلاً سلمياً عقب اجتياح

(\*) د. حليم بركات، حرب الخليج: خطوط في الرمل والزمن - يوميات من جوف الآلة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢).

منع قيام قوة عربية مستقلة متقدمة علمياً واقتصادياً وعسكرياً، وإلى ترسيخ الوجود العسكري الأمريكي المباشر في المنطقة، وإلى الإبقاء على التفوق الإسرائيلي على حساب الفلسطينيين والعرب جميعاً، وإلى إلحاق هزيمة معنوية ونفسية بالشعب العربي تحول بينه وبين المقاومة من أجل تحقيق هويته، وإلى غير ذلك من الأسباب (ص ٢٤٤-٢٤٦). ويلمح قبل ذلك إلى أن «الانتصار» الأمريكي يُساعد الشعب الأمريكي على التغلب على «عقدة فيتنام»، وهي العقدة التي نشأت عند ذلك الشعب عقب هزيمة الولايات المتحدة على يد الثوار الفيتناميين.

وإذ يتساءل القارئ عن مسؤوليّة القيادة العراقية عن الأزمة، فإن بركات لا يتسرع في اتهام تلك القيادة بالمسؤولية المباشرة. فهو يؤكد - قبيل نشوء الحرب - أن «الوحدة كئيراً ما تمت تاريخياً بالقوة» (رغم أنه يستدرك بأن ذلك لا يبرر تصرف القيادة العراقية)؛ وهو يذكّرنا بأن «الكيانات العربية القائمة قد قامت بالقوة لا بالطرق الديمقراطية والسلمية، وهي مستمرة لا بإرادة شعوبها بل نتيجة للإحساس بالعجز تجاه استبدادية الطبقات والجماعات والعائلات الحاكمة المتحكمة مدعومة بالحماية المحلية والعالمية...» (ص ١١). ويعود بركات بنا كذلك إلى الوثائق التاريخية وإلى المقالات الأمريكية المستندة إليها ليبرهن أن المفوض السامي البريطاني بيرسي كوكس هو الذي رسم في تشرين الثاني في مؤتمر عقير ما أصبح فيما بعد «الحدود العراقية - الكويتية». ويرى بركات أن العراق قد حُرم منذ ذلك الزمن من منفذ حيوي على الخليج، وكان ذلك عاملاً من العوامل التي أدت إلى قيام الحرب العراقية الإيرانية. ويعود بركات كذلك إلى خطاب صدام

حسين في ٣٠ أيار ١٩٩٠، وفيه اتهم الرئيس العراقي بعض دول الخليج بأنها تُنتج كمية من النفط تفوق ما كانت الدول العربية قد اتفقت عليه، فهبط سعر برميل النفط أحياناً إلى سبعة دولارات أي بانخفاض أحد عشر دولاراً عن السعر المتفق عليه (ص ٣٨)؛ وبركات يؤيد في هذا المجال مطالب العراق في رفع سعر البترول دفعاً للغب عن العراق، علماً بأن بركات يشدد على رفضه التاريخي «لاستبدادية النظام العراقي، وتنكيهه، وحصره السلطة في شخص وجماعة، وتسارعه في حل مشاكله مع الثورة الإيرانية عن طريق الحرب، وتغليبه التناقضات الثانوية على الأولية خاصة في علاقته بسوريا (وكان ذلك متبادلاً)» (ص ٩).

لكن بركات لا يؤيد احتلال العراق للكويت، بل يشجبه شجراً لا لبس فيه، رغم انتقاداته للكويت، وللتقسيم الاستعماري في عشرينات هذا القرن.

ويُحجي بركات باللائمة كذلك على بعض الدول العربية التي عجزت عن تطويق الأزمة العراقية - الكويتية قبل تفاقمها. ويشدد هجومه على الدول الخليجية التي ارتبطت بالغرب الإمبريالي ارتباطاً تاماً وقدمت مصالحها الطبقية على القضية الوطنية بله السواء السديني (ص ١٢٣).

وإذ تندلع الحرب في ١٦ كانون الثاني ١٩٩١ فإن يقينيات المثقف الوطني تبدأ بالاهتزاز. فهو يؤيد العزة القومية، ويؤيد العراق في رفضه الخضوع للمشيشة الأمريكية؛ لكنه يخشى - في الوقت نفسه - على العراق من السدمار، ومن الهزيمة الساحقة. وهو يشك في صحّة الخطابات العراقية عن التعبئة الشعبية ويخطئ القيادة في رهانها على الحرب البرية («فقد لا تكون

هناك حاجة إلى معركة برية» ص ١١٢)؛ لكنه يعرب في لحظات أخرى عن إيمانه بـ «البطولة» وبالحرث التي لن تنتهي اليوم أياً كانت نتائجها مادام الباطل منتصراً؛ بل إنه يؤكد في غالبية الأحيان أن القيادة الأمريكية كانت ستدمر العراق حتى لو انسحب من الكويت، ودليله على ذلك هو تعبئة الإدارة الأمريكية الشعب والكونغرس من أجل حل عسكري. وما إن بدأت الحرب البرية ضد العراق حتى بدأ المؤلف يميل إلى مفاهيم «الكرامة والعنفوان»، في حين وجدناه قبل بداية الحرب البرية أشد ميلاً إلى مفاهيم «العقل والعلم» (ص ١٨٢).

غير أن أهمية الكتاب ليست في تحليل أسباب الحرب - وقد فصلها غير باحث عربي وغربي - ولا في اتخاذ المواقف القومية الجامعة، وإنما تكمن أهميته في أمور ثلاثة: I - تقديم بانوراما شاملة عن موقف المثقفين العرب حيال الأزمة والحرب.

II - الحديث عن مواقف القوى المعارضة الأمريكية.

III - الغوص في آلية صنع القرار الأمريكي، والإدلاء بأراء هامة في «الديموقراطية».

\*\*\*

I - ففياً يختص بموقف المثقفين العرب من الحرب الأمريكية/العراقية يقدم بركات خارطة ثقافية لعلها الأشمل في أدبياتنا الحديثة. ويمكننا قسمة أولئك المثقفين إلى أربع مجموعات:

أ - الذين ارتضوا أن يكونوا أداة من أدوات صناعة القرار الأمريكي. ويمثلهم الدكتور فؤاد عجمي، الذي لا يتورع عن وصف العراق في مجلة Foreign Affairs (شتاء ١٩٩٠/١٩٩١) بأنه «بلد هامشي بين الفرس والجزيرة العربية، قليل الصلة

بالتقافة والكتب والأفكار الكبرى!! والجدير بالذكر أن عجمي كان قد نعى «القومية العربية»، وأيد مجازر حركة أمل ضد المحييات الفلسطينية، وهو صديق لبرنارد لويس وللمثقفين الصهاينة في أميركا.

ونستطيع أن نضع في هذه المجموعة بعض المثقفين الكويتيين المقيمين في أميركا. ويركز بركات في هذا الصدد على حسن إبراهيم، وهو مثقف أدمى أن إخوته قتلوا في الاجتياح العراقي، هادفاً إلى حت ادوارد سعيد وهشام شرابي وهشام بطاطو وغيرهم من المثقفين العرب المقيمين في الولايات المتحدة على إصدار بيان «يندد بالجرائم العراقية» (ص ٢١ - ٢٢). وما لبث إبراهيم أن دعا في بيان أصدره في ٢٨ آب ١٩٩٠ المثقفين العرب (أمثال سعيد وبطاطو وكلويس مقصود) إلى الانتحار «لجنهم» (ص ٢٨)، مهدداً تهديداً ضمنياً بانتقام الكويتيين من الجالية الفلسطينية في الكويت عقب التحرير! وحسن إبراهيم هذا زعم لسبركات أن العراقيين اغتصبوا أخته (أخت إبراهيم) (ص ٨٥)، وهو زعمٌ كاذب كما تأكد لسبركات فيما بعد. واكتشف الأخير كذلك أن صديقه إبراهيم يعمل مع وكالة «هيل اند نولتون» التي كانت مكلفة بتضخيم الاعتداءات العراقية لكسب تأييد الرأي العام الأمريكي لعمل عسكري أمريكي ضد العراق. ويسأس بركات لأن إبراهيم - أسوة ببعض الكويتيين الآخرين - قد أعرب عن رغبته في رؤية إسرائيل تحرره «من برائن صدام» مؤكداً (أي إبراهيم) أن «مجزرة الكويت تحت من ذاكرته مجزرة كفر قاسم»، وأن العروبة «كانت خدعة»!

ب - الذين وقفوا موقفاً مؤيداً للاجتياح

العراقي للكويت، ومعادياً للتدخل الأمريكي في الخليج. ومن هؤلاء المثقفين العرب الكاتب المغربي محمد الأشعري الذي عبّر عن سعادته «بهذا الحريق الذي اندلع فجأةً صبيحة اليوم الذي دخلت فيه الكويت التاريخ وخرجت فيه من الجغرافيا»؛ فلقد استطاع العراق - حسب تقدير الأشعري - «بضربة واحدة مسح الكويت مثلما يُمسح أي خطأ في الرسم»، في إشارة إلى فصل الاستعمار الكويت عن العراق (ص ٥٦).

ج - الذين عارضوا التدخل العسكري الأمريكي، وطالبوا - في الوقت نفسه - العراق بالانسحاب من الكويت، مع تأكيدهم على الوقوف إلى جانب العراق في حال نشوب الحرب، ومع تحميلهم الكويت المسؤولية غير المباشرة عن اندلاع الحرب. وتضم هذه المجموعة غالبية المثقفين العرب، أمثال عبد الرحمن منيف وفصيل دراج ومحمد بنيس ومحمود أمين العالم ونوال السعداوي وسعد الله ونوس وممدوح عدوان وحيدر حيدر ومحمد عابد الجابري. وتغلب على هذه المجموعة - التي تضم المؤلف نفسه كما نحدد - مشاعرُ الولاء العروبي المليء بالطموح والعزة القومية والمليء بالأوهام كذلك. وهذا ما يعبر عنه قول الجابري قبل انتهاء الحرب: «العقول الالكترونية لا يمكن أن تهزم العقول البشرية المعززة بالآيمان القوي بالقضية» (ص ١٣٧)؛ ويعبر عنه كذلك قول بركات نفسه: «لن تكون لنا قدرة على تغيير مجرى هذا المستقبل إلا بالبطولة في مقاومة هذا الرعب الآلي الذي يُصر على سحقنا. لا مستقبل لنا إلا بالبطولة المسنودة بالإرادة والوعي» (ص ١٣٩).

د - مجموعة قليلة من المثقفين العرب الذين عارضوا الاجتياح العراقي والتدخل

الأمريكي سواءً بسواء، من غير أن يعلنوا وقوفهم إلى جانب العراق في حال حصول حرب. ومن هؤلاء المثقفين أحمد الخطيب (كويتي)، وإدوارد سعيد من الولايات المتحدة.

\*\*\*

II - وفيما يختص بالمعارضة الأمريكية، فإن قلة من المثقفين تعرّضوا لمواقفها من حرب الخليج، بل اكتفى أكثر مثقفينا العرب باعتبار الولايات المتحدة مجتمعاً أحادياً ترصيصاً (monolithic) خلواً من التناقضات الداخلية. وأما كتاب بركات فيبرز مواقف المعارضة كما عبرت عنها شعارات التظاهرات في المدن الأمريكية، ومقالات بعض المثقفين في جريدة الواشنطن بوست خاصة. وهاكم جملة من الاكتشافات التي تطلعنا عليها تقارير المعارضة قبيل الحرب وأثناءها وبعدها:

- «المسألة ليست مسألة جنون شخص واستبداده [في إشهاره إلى إصرار الإدارة الأمريكية على رمي الرئيس العراقي بالجنون] بل هي مسألة الاستمرار في السيطرة [الأمريكية] على النفط، وإلا لكان السعوديون أولى بالقتال على اعتبار أنهم «يقطعون الرؤوس والأيدي ويديرون مجتمعاً لا يكاد يصل إلى مرحلة ما بعد الإقطاعية» (ص ٣٥)؛

- «هل يشكّل صدام تهديداً لأمتنا [أمن أميركا] القومي أكثر من واقع أن ٣٧ مليون أمريكي تنقصهم العناية الصحية، وأن ٢٠ مليوناً يعانون من سوء التغذية، وأن ٣ ملايين بدون مأوى، وأن ٢٠ مليوناً من الأميين، وأن ١٢ مليوناً لا يجدون عملاً كاملاً؟» (من افتتاحيات صدرت في ٩١/١/٩١)؛

- إن حقيقة أن السود الأمريكيين يشكلون ٣٠٪ من القوات المحاربة، وأن

الفتيات السوداوات يشكّلن ٤٩٪ من المتطوّعات في الجيش رغم أن السود والسوداوات لا يشكّلون سوى ١٢٪ من الشعب، مردّهما إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي تدفع بهم وبهنّ إلى الجيش (ص ١٠٠). وأمّا القادة العسكريون السود (ك «باول» وأضرابه) فيعملون لمصلحتهم الشخصية وهم جزء من عمليّة الإيجاء بأنّ المؤسّسة الأمريكيّة الحاكمة منفتحة على جميع الألوان والأجناس (ص ١٥٧).

- عند بداية الأزمة (أيلول ١٩٩٠) كان ١٠٪ فحسب من الشعب الأمريكي يؤيّدون الحرب، وكان ٤٨٪ من هذا الشعب يطالبون الإدارة الأمريكيّة بأنّ تُعطي الحصار الاقتصادي (sanctions) الوقت الكافي لكي يُؤتي ثمره. أما مظاهرة ٩١/١١/١٩ أمام البيت الأبيض فقد شارك فيها مئة ألف معارض (لا ٢٥ ألفاً كما ذكرت الشرطة)، وأمّا التي تلتها (٩١/١/٢٦) فقد شارك فيها ٣٠٠ ألف معارض (لا ٧٥ ألفاً حسب زعم الشرطة) (\*).

وبناء على حجم المعارضة الضخم، فقد عمدت الكويت إلى دفع مبالغ طائلة لوكالات دعائية (مثل Hill and Knowlton و Wirthin Group) كي تهيج الأمريكيين ضد العراق. وقد قدّم سفير الكويت إلى أميركا ١٣ بليوناً ونصف بليون دولار مؤكّداً أنّ هذا المبلغ صغير لا يستحقّ الذكر (يتساءل بركات هنا: إذا كان هذا المبلغ لا يستحقّ الذكر، فلماذا كان من الصعب مساعمة العراق بديونه؟) (ص ١٣٠). وعمدت وكالة «هيل أند

(\* أذكر أنّي التقيت بحليم في المظاهرة الأخيرة، وكان يحمل باظفة منمّدة بالتدخل الأمريكي.

نولتون» وغيرها من الوكالات الأمريكية المدفوعة إلى اختلاق الحكايات عن الجرائم العراقيّة فدربّت - على سبيل المثال - ابنة السفير الكويتي سعود ناصر الصباح لكي تكذب أمام الإعلام وتدعي أنّ اسمها «نيرة» وأنها شاهدت جنوداً عراقيين «ينزعون ١٥ طفلاً كويتياً من حاضناتهم في مستشفى العيدان في مدينة الكويت ويتركونهم للموت على الأرض الباردة»؛ وهو ما صدّفته وكالة العفو الدولية أوّل الأمر، قبل أن تتراجع عنه لاحقاً بعدما أثبت الصحفيّ المعارض الكسندر كوكبورن كذب هذا الخبر (تراجع في ذلك جريدة النيويورك تايمز في ٦ كانون الثاني ١٩٩٢، ودوريّة The Nation في ٤ شباط ١٩٩١).

غير أنّ ما لم يتحدّث عنه د. حليم بركات هو واقع المعارضة الداخليّة: شعاراتها الرومانسيّة تارة والمشكّكة بالعرب تشكيكاً مجاذي المواقف العنصريّة تارة أخرى؛ وانقساماتها العميقة التي كثيراً ما كانت تعود إلى تشنجات فئويّة حزبيّة؛ وتأييد بعض أطرافها للصهاينة؛ وارتباط أقسام منها بالمخابرات المركزيّة الأمريكيّة؛ وهامشيّة أقسام أخرى وعدم جدّيّتها. وكلّها أمور ووقائع كان أولى بالدكتور حليم أن يعطيها الاهتمام الكافي، اللهمّ إلاّ إذا شاء أن يقصر اهتمامه على بيانات المعارضة وتحليلاتها السياسيّة دون الاحتكاك المباشر بأحزابها والمنضوين فيها.

\*\*\*

III - من أبرز القضايا التي يتصدّى لها الكتاب آلية القرار الأمريكي، وتحديد مفهوم «الديموقراطيّة الأمريكيّة». فالكتاب لا ينتقد ذلك المفهوم - كما هو شائع عند كتابنا العرب - من زاوية التهجم الجاني أو العموميّات التبسيطيّة؛ وإنّما يلتقط لحظات

مصريّة في سيرورة تلك الديموقراطيّة ليبرز خللها. وأستميح القارئ عذراً في إيراد مقطع طويل من كتاب د. حليم في هذا الصدد (من يوميات ٢/٢/١٩٩٢، قبل أسبوعين من بدء الحرب):

أرى أن تُقاس الديموقراطية بمدى حصول نقاش حرّ ومفتوح حول القضايا الأساسية التي تؤثر في حياة المجتمع أو المؤسسة أو الجامعة، وبالتوصّل من خلال هذا النقاش إلى القرارات الحكيمّة بحيث يصبح الشعب مصدر السلطة حقّاً. ولا تكون الديموقراطية لمجرد المشاركة في انتخابات تكون فيها خيارات الناخب معدودة مسبقاً، فيضطرّ الناخب أن يختار الأقلّ سوءاً بين الخيارات القليلة أمامه ودون أن تتوفر لديه المعلومات الصحيحة.

أثير هذا الموضوع للنظر فيما إذا كانت عملية صنع قرار الحرب عملية ديموقراطية في ضوء تعامل الحكومة الأمريكيّة مع المعارضة... لم يُناقش الكونغرس الأمريكي مسألة دخول أميركا الحرب، واضطرّ أن يُوافق على تحويل الرئيس الأمريكي استعمال القوة عند الضرورة، قبل أيام قليلة من نشوب الحرب، وبعد أن اتخذ الجيش الأمريكي مواقفه في الخليج، وحين أصبح الكونغرس مضطراً لأنّ يؤيد الرئيس لأنّ عدم تأييده في هذه الحالة يعني عملياً عدم مساندة القوات المحاربة وهي في الجبهة، وهذا ما سيعرضها للخطر... بكلام آخر، وضعت الإدارة الأمريكيّة الكونغرس أمام الأمر الواقع وألغت خياراته، فاقترص النقاش على إيجاد المسبّرات والبحث في الشكليات... (ص ١٤٠).

\*\*\*

ثمة ملاحظات ختامية أودّ الإشارة إليها، وهي:

١ - الكتاب لا يمكن إلاّ أن يُكتبّ بالعربيّة ويوجّه إلى قارئ عربي. فهاجس الكتاب الدفاع عن العرب وعن عدالة قضيتهم، دون الاهتمام المباشر أحياناً بهموم الأمريكيين أو مشاعرهم ولا بهموم اليهود والإسرائيليين والمتحالفين معهم ومشاعرهم. خُذ، مثلاً، فرّح حليم

بركات بصاروخ «السكود» العراقي الذي سقط على تل أبيب، إذ يقول: «حان وقت الأعداء أن يخبثوا ويقلقوا... لا أزيد أن أخدع نفسي، لا أرى نصراً في الأفق، ولكننا لن نستسلم... سنظل نبحث عن بطولة نادرة في زمن الرماد» (ص ١١٨). ولاحظ كيف يتباهى بركات مع الجيش العراقي ومع الشعب الفلسطيني المهلّل فوق سطوح فلسطين للصاروخ العربي يدكّ الكيان الصهيوني. وغني عن الذكر أن مثل هذا الفرح محرم (تابو) في الأدبيات العربية الأمريكية، ويُرمى صاحبها بـ «اللاإنسانية» و«اللاسامية»، إلى ما هنالك من مصطلحات تعبر عن معايير مزدوجة تقبل الأذى للعرب وترفضه حين يصيب اليهود.

وخذ مثلاً آخر هو فرح بركات بصاروخ عراقي يضرب «الخبر» قرب الظهران، فيقتل ٢٧ أمريكياً. وإن المرء ليتساءل إن كان بإمكان بركات أن يكتب عن فرحه ذلك بالانكليزية؟!

٢ - غطّ اليوميات عاجز في كثير من الأحيان عن التحليل المتأنّ العميق. ومثالنا على ذلك معالجة د. حليم لـ «القضية الكردية»، وهي معالجة لا تقدّم بديلاً سريعاً لمأساة الأكراد، رغم أننا - أسوة بركات - نرفض تقسيم العراق ولجوء القيادات الكردية إلى أحضان الإمبريالية الأمريكية. ولكن يبقى السؤال: ما هو البديل الذي نقدّمه لهم؟ وهل تكفي العودة إلى شعارات القومية العربية بخصوص حقوق الأقليات؟

٣ - بُيئت الكتاب أن لا غنى للعربي عن الاطلاع على الصحافة الغربية لمعرفة الحقائق. ومن هذه الحقائق مثلاً أن موظفة في مكتب الاحصاء الأمريكي طُردت من عملها لأنها ذكرت لأحد الصحفيين أن ١٥٨ ألف عراقي قُتلوا على يد القوات

المتحالفة، بينهم ٦١٢, ٣٩ امرأة و ١٩٥, ٣٢ طفلاً (ص ٢٤٩). ومن هذه الحقائق ما ذكره الضابط «بيني ويليامز» لـ «الواشنطن بوست» في ١٢ أيلول ١٩٩١، ومفاده أن الجيش الأمريكي الذي اقتحم الخطوط العراقية الدفاعية الأولى في الأيام الأولى من الحرب البرية في أواخر شباط ١٩٩١ قد استعمل جرّافات ترابية رُكبت إلى الدبابات الأمريكية في دفن «مئات أو آلاف من الجنود العراقيين - وكان بعضهم ما يزالون أحياء» في خنادق تمتدّ حوالي ٧٠ ميلاً على الحدود العراقية السعودية؛ ويتابع الضابط «لقد دفنواهم أحياء تحت أطنانٍ من الرمل!»

ومثل هذه الأخبار كثير في الكتاب، وهو يفضح الإعلام العربي لإغفاله مثل هذه الحقائق. لكنّ الكاتب - كما قدّمنا - لا يثق بكل التقارير الإعلامية الغربية، وإنما يدعوننا إلى تحييصها وأخذ الحيطه من بعضها.

\*\*\*

يبقى أخيراً أن الكتاب مرشح لأن يُمنع في أكثر البلدان العربية. وهذا سيضرب بالشعب العربي التائق دوماً إلى الحقيقة. لكنّ ذلك المنع لن يكون إلاّ وساماً على صدر كاتبه لأنه استطاع أن يتخذ من الحقيقة مشعلاً في وجه الطغاة.

## رأيان في «مرثية الغبار» للشاعر شوقي بزيع

الدكتور سهيل ادريس

١

### شاعر الشفافية والإيحاء

وقصيدة «مرثية الغبار» التي تحمل اسم الديوان حافلة بأجواء هذا العالم الذي يتفرد الشاعر برسم أجوائه وإيراد دلالاته. فهي استدعاء الطفولة بكلّ براءتها ونقاها من أعماق كهل في الأربعين يمتلئ أفق روحه بالغبار الذي خلّفته أنقاض الحرب، فيتساءل متوجّهاً إلى الطفل فيه: «هل أنا أنت؟ ومن نحن؟ (...). أيها الطفل / يا ولداً كنته قبل ثلاثين عاماً/ أما كان في الأرض مُتسع لي ولك؟ (...). أنا اثنان / يصرخ كلُّ بصاحبه: أنجُ سعد، فإنّ سَعِيداً هلك / أنا اثنان / لا يسمعان سوى الرّيح تهدر بين حطاميهما / واقفان على ضفتي هذه الحرب / كلٌّ يشير إلى رأس صاحبه في دَهولٍ / ويسأل: من قَتَلَك؟».

ليس من العسير على راصد الشعر العربي الحديث أن يحكم على الشاعر شوقي بزيع بأنه من أكثر الشعراء المبدعين حضوراً، ومن أقدرهم على تمييز عطائه بخلق عالم شعريّ هونسيح وحده، يستمدّ جبره من دواته الخاصة ويكره أن يستعير أصابعه من يد أحد.

ولاشكّ في أن ديوان شوقي بزيع الأخير مرثية الغبار (وهو الخامس الذي تعترّ دار الآداب بنشره بعد إخوة أربعة سابقة له) هو أكثر إنتاجه نضجاً وتطوراً، وأعمقه تدليلاً على تميّز شخصيته الشعرية وأدائه الفني.